خلاصة عن موسم التنقيب الرابع عشر

في مدينة ماري ـ تل الحريري ـ لعام ١٩٦٤

بقلم الأستاذ : أندره بارو

تلخيص وتعريب : عدنان الجندي

لقد وجدت البعثة منذ وصولها دمشق في ٢٩ شباط ١٩٦٤ الاستقبال الحسن الذي تعهده دائماً من المديرية العامة للآثار والمتاحف ، وساعدت التسهيلات التي قدمت لنا من قبل موظفي المديرية في كل من دمشق وحلب على الاسراع في الوصول إلى موقع الحفرية على الفرات ومباشرة العمـل .

وصلت البعثة إلى الموقع الأثرى للمدينة في السادس من آذار ولقيت هناك كل العطف والمساعدة من قبل مدير المنطقة .

بعثة هذا العام تتألف من بعض اعضائها القدامى : الاستاذ دوسان عالم اللغات البابلية والسيدة لويز بارو والسيد تيلليه رئيس الأعمال ومن عضوين جديدين هما السيد كيبر عالم اللغات الآشورية والمهندس تيلليه كما مثل المديرية العامة للآثار والمتاحف لدى البعثة السيدان كامل مهندس محافظ متحف حلب والسيد سليمان المقداد المساعد الفني في المديرية .

لقد أشارت تقاريرنا السابقة بوضوح[1] بأن اعمالنـــا تمركزت منذ عام ١٩٦٠ أكثر من ذي قبل في الفترة الزمنية لمـــا قبل صرغون : لقد رفعنا في السابق الانقاض عن مساحة واسعة من قطاع الزيقورة وعلى عمق ملحوظ فتبين لنا وجود بناء ديني عرفناه باسم معبد

(١) تراجع اللوحات ومصادر البحث والتعليقات عليه في المقال الأصلي في القسم الأجنبي من المجلة .
المعرب

« دكن » فما كدنا نكتشف عن الجزء الهام من المعبد حتى بدا لنا منه معرفة القسم المستور تحت الكتلة الترابية ومع هذا لم نتردد في الكشف بصورة واسعة عما يرسم لنا المخطط العام وحفرياتنا في هذا القسم لم تكن عقيمة فقد وجدت أجزاء تماثيل ولوح من الموزاييك الصدفي وبعض الرقم المكتوبة التي تؤرخ عصر ما قبل سرغون وعلى واحد منها ذكر اسم قصر بشكل واضح مما يرغبنا في التفتيش عن هذا البناء الذي لم نكن لنعرف له ذكر من قبل .

وإن تنقيبا كتنقيب تل ماري يجب أن يكون منهاجيا وليس صيداً لبعض الأوابد واللقى فقد أظهر لنا موسم عام ١٩٦٣ بأن معبد « دكن » العائد لعصر ما قبل سرغون يغوص تحت بناء أحدث منه وبصورة خاصة تحت جدار ذي مظهر حسن فعوضاً عن أن ينحرف نحو الشرق ، وهذا ما كنا نفترضه مقدماً ، محددا محيط باحة الزيقورة وفق مقتضيات الاتجاه فقد انحرف نحو الشمال الغربي باتجاه القصر الملكي . وهذا ما جعل أمامنا عملاً شاقاً بسبب إزالة الكميات الترابية (الأنقاض) التي وضعت من أجل العربات الحديدية والتي غطت وياللأسف الجدار المشار اليه المراد كشفه .

ولقد باشرنا العمل برفع الركام السابق بدون توقف بين ١٠ آذار و ٢٢ منه ولكي لا نضيع الوقت الثمين فقد فتحنا ورشة في الغرب من معبد شمش من أجل التثبت فيما إذا كان المعبد يتوقف في المكان الذي تركناه عليه في كانون الأول من عام ١٩٥٤ أو فيما إذا كان لا يتجاوز اتجاه الغرب . وقد أكدت الأعمال حلولنا وملاحظاتنا السابقة : فالمعبد المشاد من قبل الملك « يهدونليم » في أول الألف الثانية كان يقوم مباشرة فوق معبد من عصر ما قبل سرغون ومن الأفضل القول : معابد ما قبل سرغون طالما عرف ثلاثة مباني من هذا العصر متوضعة فوق بعضها .

ووراء حدود هذه المنطقة المقدسة لم يكن يوجد سوى بيوت فقيرة المظهر فعلى السطح تقوم أبنية تعود لأوائل الألف الثانية تحتها أبنية مسكونة من الألف الثالثة يتوزع عليها قبور من عصر القصر الملكي وقد أعطانا واحد منها كثيرا من الفخار : جره بتزيينات محفورة تمثل نسراً باسطاً جناحيه وشخصا بدائي الرسم كأنه نفذ بيد طفل يرسم لأول مرة . وقد جاء هذا الرسم مليئاً بالواقعية الرشيقة . بعض الأختام الأسطوانية واحد منها من نموذج العصر الأكادي

مكتوب باسم الكاتب « ايلي ايتيناشو » . وجد في داخل المعبد تميمة من حجر اللازورد ذات اسلوب سومري وهي غير منتظر وجودها في مثل هذا المكان من الطبقة ، كما وجد بعض عظام حيوان ميزه عمالنا بدون أي تردد من مشاهدة فكه بأنه حيوان الجمل ، ونظراً للمجادلات غير المنتهية حول موضوع وجود الجمل المؤهل في ذلك الوقت فقد يكون من المفيد بأن توضع هذه العظام بين يدي خبير مختص ليؤكد هويتها .

ولم يكن الهدف من الحفرية اظهار الجدار المحاذي للقصر الملكي ، وقد انهينا العمل في الغرب من معبد شمش وانتقل العمال الى مكان قريب من باحة الزيقورة هو من قطاع القصر حيث ظهرت الأبنية ذات مظهر فقير شعبي استطعنا التعرف عليها ودراستها .

فقد وجد في كثير من غرف هذا القسم رقم مكتوبة من عصر زمرليم الذي عرف بآخر ملك سكن القصر .

لقد كنا نرغب منذ مدة طويلة أن نقود في مدينة ماري حفرية منهاجية المستويات (على طريقة الطبقات) المقسمة ، فلتسهيل المراقبة لورشة ثانية اخترنا لهذا العمل جزء من باحة رقم ١٣١ من القصر الملكي للملك زمرليم وعلى امتداد /١٥/ مترا وهي عبارة عن باحة لا يوجد فوقها أي بناء ، وقد وجدنا بأن في مقدورنا تسيير العمل في هذين المكانين المتباعدين طيلة ما تبقى لنا من أيام الموسم وكان لزاما علينا في نفس الوقت تعديل المخطط الأولي للباحة بسبب ما طرأ عليها .

وقد أمكن متابعة الجدار الضخم الجميل على امتداد ٦٠ مترا ولكن لم نتوصل بعد الى معرفة أين بالضبط يتصل ثانية في القصر الملكي لقلة الزمن وتمركز أشغالنا في أمكنة أخرى وعلى كل حال يمكن القول بصورة أكيدة بان الاتصال لا يمكن أن يكون الا في الزاوية الشمالية الشرقية من القصر ، وقد وجدت فوقه قبور آشورية فقيرة رغم عدم مساسها .

وكما ذكرنا من قبل فان الأسبار الطبقية لم تكشف فقط عن مستويات وعصور فوق بعضها فحسب بل عن عمارة هامة سرعان ما أمكن ردها بشكل مؤكد الى عصر القصر السابق لسرغون ومهما يكن الامر فالمنطق يفرض بأن ساكني القصر حكام وأسياد مدينة ماري لبدء الألف الثانية لم يكن ليرغبوا في الحصول على بناء آخر سوى أبنية اسلافهم ممن عاشوا قبلهم في

الألف الثالثة . ولهذا فإن طراز الأبنية التي أمكن ايجادها فيما بعد موضعة فوق بعضها هو من طراز واحد وهذا ما سيمكن التأكد منه فيما بعد .

وما كدنا نرفع ما تبقى من البلاط القرميدي من باحة رقم ٦٣١ حتى بدا لنا حوض جميل من الآجر فوق جدار يختلف مظهره بصورة عامة عن مباني عصر « زمرليم » فلربما يخص الملك « يحدونايم » حيث وجد اسمه على طبعة ختم من الفخار التقطت من الجوار . والحوض الفخاري يستند بدوره على بناء هو أيضاً من الآجر عرفناه بسهولة من حفرة التأسيس العائدة لعصر الحكام الدينيين « الشاكناك » ولكن مع الأسف خالية من كل شيء . وهناك برهان آخر وهو وجود آثار الكثير من أعمال الحكام الذين سبقوا « زمرليم » ومن أوائل الألف الثانية . والحفرة التأسيسية والحوض القرميدي هما بتماس مع نموذج بناء هندسي أقدم فالنماذج الفخارية الملتقطة ترجع الى عصر ما قبل سرغون وهو من طراز هندسي رائع ذي جدران مستقيمة سميكة وليس له أي صلة مع المباني المكتشفة في الغرب من معبد شمش فقد وجدت جميع الطلاءات مشوهة بسبب الحرائق حيث الرماد المتفحم يشير الى شدتها ، فأثناء الكشف عن غرفتين وجد في احداهما ، بالقرب من مجموعة كبيرة من الكسر الفخارية ، شكل زيتونة من الفخار عليها كتابة باسم « انسوب » الملك كما وجد الكثير من القطع الفخارية سدادات جرار عليها طبعات أختام تعود لعصر ما قبل سرغون بعضها يمثل « جلجامش » يروض الحيوانات مع اسم ملكي جديد ما زال السيد دوسان متحفظاً في قراءته نظراً لرداءة الطبعة ، فجميع هذه الدلالات تبشر بالخير وتسمح لنا بالتنبؤ وتحثنـــا على متابعة العمل بثقة أكيدة وعلينا أن نركز الجهود منذ الآن فيما اعتبرناه في البدء حفرية سبرية فقد انقلبت الى حفرية افقية متسعة ولهذا فقد نقلنا جميع العمال الى الباحة رقم ١٣١ من القصر .

كان العمل في البداية مكرسا بالضرورة في الكشف عن المقبرة الآشورية لاحقة للأعمال التي كانت قد نفذت في عام ١٩٣٦ . فقد تمكنا من دراسة ما يقارب الخمسين قبراً ، وهذا ما سمح لنا في ايجاد وثائق تامة حول موضوع القبور الآشورية في ماري : حيث كانت تواري أجساد الموتى في التراب مباشرة أو في قبور فخارية اما بيضوية الشكل تقريباً واما على شكل جرتين متلاصقتين عند الفوهه ومظهر هذه القبور لا يوحي بالغنى فمحتوياتها عبارة عن فخار : صحون وجرار ، بعض الحلقات الصدفية أو البرونزية ، أساور برونزية أو حديدية ، قليل من النذور الثمينة مثل الحزام من الذهب ، وعقود من أحجار مختلفة وأواني نذرية قاشانية ، باستثناء القبر رقم ٦٣٠ الذي قدم لنا آنية نذرية من الالباستر هي أثمن ما وجد في ماري حتى الآن

كما وجد جمران في القبر نفسه لم نتمكن من تأريخه إذ لم يوجد له مثيل في المجموعات المصرية المدروسة ولنذكر أيضا انتشار استعمال الصدف الطبيعي الحلزوني فقد وجدت كميات منه بالمئات موضوعة بجانب المتوفى أو فوقه وقد لوحظ بأن جميع القبور الترابية الصرفة أو الجرار تحتفظ باتجاه مميز هو الإتجاه الشرقي العربي .

وعند انتهاء العمل أصبح لدينا قسم مكتشف يؤلف تقريباً ثلثي الباحة رقم ١٣١ اضافة الى الجزء الذي اعيد كشفه من الغرف ذوات الأرقام ١٣٣ و ١٢٤ و ١٣٥ وجميع الغرفة رقم ١٣٢ تقريبا من قصر « زمرليم » واذا كانت الأبنية تحت الباحة رقم ١٣١ نادرة وهي التي ندعوها أبنية وسيطة باعتبارها ترجع الى عصر لاحق لعصر ما قبل سرغون وسابق لعصر « زمرليم » ، فهي تبدو هامة جداً تحت الغرفتين ذاتي الرقمين ١٣٢ و ١٣٥ ويمكن نسبتها الى الحكام الذين سبقوا « زمرليم » مثل « يدونليم » المؤكد تحقيقه « وسوموياmam » الأقل وضوحا وتحقيقاً ، فالسيد دوسان استطاع قراءة مجموعة من النصوص المتعلقة بأعمالهم كما استطاع وفقا لذكر التقدمات أن يجد من جديد كل الثالوث الإلهي المعبود في مدينة ماري في زمن أور الثالثة وأكثر من ثلاثين الهاً أكثرهم كان مجهولا لدينا حتى الآن .

وقد برزت أهمية الأبنية الوسيطة بعد دراسة المخططات والصور فظهرت أبنية فترة ما قبل سرغون لا شيء بجانبها وقد تم الكشف عن احد عشر غرفة أو باحة ، وسيندهش البعض اذا الحصنا القول وأكدنا بأن هذه المباني عائدة لقصر ملكي يعود الى عصر ما قبل سرغون وهذا ما نفرضه للاسباب التالية : العصر مؤكد بوضوح ودون أي تردد بالنسبة للفخار والاختام الاسطوانية والكتابات ، كما تبدو لنا في البناء الصنعة الملكية لا الدينية واضحة أيضاً لوجود اسم « انسوب » أو « أنسود » ثلاث مرات مكتوبا على خرزتين من القار وسدادة جرة . وقد ذكر اسم « انسو » وفق قوائم بعض كتبه من مدينة اسن ـ لارسا كموسس لسلالة فرضت سيطرتها على كل بلاد ما بين النهرين وعرفت باسم السلالة العاشرة بعد الطوفان ، وأخيرا المحنا من قبل عن وجود اسم ملكي آخر ظلت قراءته بالنسبة للسيد دوسان غير مؤكدة انما واضح وجلي الدلالة بأنه اسم ملك من ملوك ماري .

وبعد فإن ما كشفناه كان عبارة عن مخطط بناء لم يعرف فيه أي صفة من صفات البناء المقدس لما بين النهرين . واذا نظرنا الى الموضوع من وجهة المعتقدات والتقاليد يكون من الامور العادية لقصر بني فوق قصر آخر وعلى خلاف معه في كل القواعد أن يكون معبداً لاله ليس في الواقع أرضا مكرسة له . فقد كشفنا في عام ١٩٣٥ قصرا من عصر ما قبل

حمورابي له طراز بناء خاص لم نكشف منه آنذاك سوى عن خمس غرف وقد وجدنا فيه ثمانماية رقيماً . وفي عام ١٩٦٤ عرفنا قصراً من عهد ما قبل سرغون باسم ملكين وبه إحدى عشرة غرفة أو باحة ذات طراز بناء يصعب التأكد من صفته الملكية .

وقد كان لنا حظ في الكشف منذ البداية في الباحة رقم ٤ عن تنظيمات بنائية رائعة ، فقد وجد في إحدى زوايا الباحة المذكورة مسطبة مسرحية مرتفعة مغطاة بطبقة جصية مرفوعة فوق درجتين بقياس أكثر من ٨ أمتار وكانت في الواقع معدة لأن تكون مسرحاً يقوم خلفها مدخل فخم تحيط به كتلتان من البناء ، وينتصب في الوسط دعامة خشبية تعرضت لحريق هائل وكان لها دور تزييني أكثر منه بنائي . وقد توقفت أعمالنا عند الممر ولم نعرف كيف يكون اتجاه المدخل الذي لم يكشف عنه بعد ؟ وكان يصعد إلى المنصة (المسطبة) بواسطة درجتين وعلى امتداد إحدى جهات الباحة يقوم مقعد طويل يسمح للزائرين في الأستراحة والانتظار .

ولقد ألمحنا سابقاً بأن القصر تهدم بقساوة ووحشية كما اشتعلت النار به . وهذا لا يدهشنا أبداً اذ أن جميع المعابد من عصر ما قبل سرغون في ماري ثبتت تخريباتها بفعل الانسان ولكن لم نشاهد بقوة هذا التهديم والتخريب والحرق ، فما أن وصلنا إلى مستوى الأرض حتى ظهر لنا الرماد المتكاس للأشياء ؛ لقد كدس الغزاة حول الدعامة جميع الأخشاب والأشياء التي تساعد على الاشتعال والتي تجمرت وانطفأت نهائياً عندما انهار البناء فوقها . ولهذا لم تحرق الدعامة الخشبية بصورة تامة . وتشاهد الحالة الأليمة في كل مكان ، ففي غرفة رقم /٥/ وجدنا تحت الرماد هيكل إنسان تدل وضعيته ونظراته المؤلمة بأنه أخذ على حين غرة فهو ملقى على ظهره ، فخذاه متباعدان ممدود اليدين وبحالة التقلص والألم وخيبة الأمل ، وهذا الدليل الوحيد الإنساني الذي أمكن ملاحظته حتى الآن في القصور العائدة لما قبل سرغون في ماري ، وقد تعرض البناء أيضاً قبل الحرق الى السلب والنهب وكل ما جمعناه من قطع أثرية هي : جذع تمثال صغير مقطوع الرأس ، تميمة من حجر اللازورد تمثل غزالين مضطجعين ، صفيحة صدفية وقطع من آنية ثمينة .

ومن الطبيعي فيما بعد أن نعرف اتساع هذا البناء السكني وحدوده وما يضم من أثاث ولكنها ليست رغبة سهلة المنال ؟ فبعد ثلاثين سنة من العمل المتواصل في مدينة ماري أمكننا التأكد والتثبت من قصور الشخصيات : « لجي ـ ماري » و« ايشور شماغان » و « ايبلو ـ ايل » المكتشفة بين عامي ١٩٣٤ ـ ١٩٥٣ وذلك عندما عثرنا على تماثيلهم .

ماري في ١ أيار عام ١٩٦٤